الموضوع : الاستاذ المساعد وليد سامي خليل
التاريخ / / ٢٠١
المرحلة الثالثة / قسم اللغة العربية
المادة : في ادب العصور المتأخرة

①

الحالة السياسية :-

أطل القرن السابع للهجرة على العالم العربي، وهو في حالة ضعف وفوضى واضطراب، وكان الخلفاء ألعوبة بيد الأعاجم الذين تحكموا بالبلاد كما شاؤوا.

وازدادت حدة الفوضى والاضطراب في أيام الخليفة المستعصم بالله، لانه كان ضعيف الرأي منصرفاً إلى اللذة واللهو ومسلماً أمور دولته الى رجل يدعى ابن العلقمي الذي ولي الوزارة أربع عشرة سنة، وتعاضد مع التتر لاسقاط دولة بني العباس، ليستخلص الحكم لنفسه واتباعه لكن خاب سعيه ومات دون ان ينال مبتغاه.

اما اهم العوامل التي شجعت هولاكو على الزحف نحو العراق هي

١- ضعف الخلافة ② تفرق الناس شيعاً وأحزاباً ③ فقدان الأمن والطمأنينة

وقبل وصول هولاكو الى بغداد حذره الناس العقلاء من هذا الزحف الا انه لم يباشر باعداد جيش قوي واعداد الامور اللازمة لصد هذا الهجوم فضلاً عن اصلاح الاوضاع الداخلية ولكن لم يلتفت المستعصم لهذه النداءات وترك الامر سائباً.

وقد وصفه ابن الطقطقا في كتابه الفخري في الآداب السلطانية وقال ((وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعم باللذات، لا يراعون صلاحاً، وفي بعض الامثال: الحائط لا يسمع صياحاً وكتبت له الرقاع من العوام انواع التحذير وألقيت فيها الاشعار من ذلك

قل للخليفة مهلاً أتاك ما لا تحب
ها قد دهتك فنون من المصائب غُرب
فانهض بعزم والا غشاك ويل وحرب
كسر وهتك وأسر ضرب ونهب وسلب

وقد انطلقت ألسنة الشعراء لكشف المجتمع الفاسد والمصائب التي حلت به

وكان أبرز شاعر في هذا الميدان مجد الدين النشابي (ت ٦٥٦هـ) وقد نظم قصيدة مطلعها

يا سائلي ولمحض الحق يرتاد * أصخ فعندي نشدان وإنشاد

وتطرق هذا الشاعر في هذه القصيدة إلى اضطراب الأوضاع وفسادها، واختلال الإدارة، ونظام المصادرة والتعدي على الناس، والقضاء على الحريات، ومحو العدل والمساواة، وكذلك انتقد بشدة الوزراء ورجال الخليفة المشغولين بعبثهم وتهجم على رجال الدين الذين تركوا ما أوصاهم به الله، وفي آخر القصيدة تمنى الموت قبل رؤية المسلمين وهم واقعون في كارثة يشيب من هولها الولدان فقال

الى المنية كي تساورني * فللمنية إصدار وإيراد
من قبل واقعة شنعاء مظلمة * يشيب من هولها طفل وأكباد

لقد كانت القصائد التي صدر فيها الشعراء المسؤولين ورجال الحكم صيحة في واد ونفخة في رماد.

ودخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ وقتل أهلها وشوه معالم الحضارة والمدينة المعمورة، وخضعت له كافة المدن العراقية خوفاً ورهبة منه، وقد تسلم بعد هلاك الطاغية أولاده زمام الأمور وكان أفضلهم شأناً في إدارة الدولة الأمير تكودار خان، وقد أسلم ويقال ان اسلامه سبب قتله، وتسمى باسم (أحمد) وقد استمر حكم هذه الأسرة لغاية ٧٣٨ هـ وخير ما توصف عهدهم بقول أحد الباحثين «فزمانهم زمان نزاع وتخاصم والملك لمن غلب، والحق للأقوى، والفوضى تهيمن على مرافق دولتهم من كل جانب وإدارتهم مفككة يعوزها النظام واتحاد الكلمة، وقد تجلت كل مظاهر هذا الضعف والفساد في حكومة العراق»

وقد انتقل منه الحكم الى الشيخ حسن الكبير الايلخاني أمير بلاد الروم الا ان حكمه لم يدم طويلاً، حيث استولى الجلائريون على البلاد سنة ٧٤٠ هـ حيث أخذ لبغداد في ظل هذه الأسرة رونقها

فقامت العمائر وشيدت المدارس الكبيرة وكان اشهر امرائها مرجان ابن عبدلله الأولجاتي الذي قام باشادة مدرسة على غرار مدرسة النظامية الكبرى وبنى دار الشفاء لتكون معهداً ومستشفى، كما بنى كثيراً من الخانات والاسواق وتغيبت هذه الدولة كاتمة الحالة، هجم عليها تيمور لنك سنة ٧٩٥ هـ الذي فتك باهلها اشد الفتك وأتلف تحفها وذخائرها ومعالمها ودورها ومكتباتها وجوامعها، ولقد لقي الناس من هذه الويلات والفقر والجوع والأوبئة، بعدها عادت الدولة الجلائرية الى الحكم مرة اخرى ولكنها سرعان ما انتهت وجاءت الدولة الصفوية سنة ((٩١٤هـ)) حيث اقاموا دولة فارسية وكان عهدهم اسود ظالماً وقد نازعهم الاتراك العثمانيون واستولوا على العراق سنة (٩٤١هـ) وكان اشهر قادتهم سليمان القانوني الذي مكث في بغداد ستة أشهر حيث اصلح شؤونها وأمر بحفر بعض القنوات المهمة في كربلاء واستمرت هذه الدولة لغاية ١٣٣٥ هـ.

اما في مصر لم تكن الحال بأحسن من العراق وذلك لان الاسرة الايوبية الحاكمة فقدت قوتها في اواخرها الاخيرة وسقطت بيد المماليك سنة ٦٤٨هـ وامتد حكمهم الى الشام والحجاز، وكان من ابرز حكامها قطز الذي ساس البلاد خير سياسة واستطاع تحطيم التتر في الشام والانتصار عليهم في معركة ((عين جالوت)) اما الحاكم بيبرس البندقداري كان رجلاً حازماً، احسن الى الرعية وازال عنهم الكثير من الضرائب وانشأ المدارس والمساجد وبعدها جاء سيف الدين قلاوون وبعده اعتلى منصة الحكم صلاح الدين خليل الذي لقب بالملك الاشرف وتولى بعده سدة الحكم محمد الملقب بالملك الناصر الذي انتهى حكمه سنة ٧٤١، وقد تعاقب على السلطة ملوك ضعفاء وكان من بينهم المماليك البحرية وبعدهم جاء المماليك الشراكسة وكان اول ملك لهم الظاهر برقوق وتولى بعده ثلاثة وعشرون ملكاً وكان آخرهم الاشرف طومان باي الذي سقط حكمه امام الجيوش العثمانية سنة ٩٢٢هـ وشنق على باب زويلة وفيه قال ابن اياس

نوحوا على مصر لامر قد جرى * ومصيبة عمت بليتها الورى

وقد اشاره الى شنق طومان باي بقوله

يشنقوه ظلماً فوق باب زويلة * ولقد اذاقوه الوبال الاكبرا
يارب عفواً عن عظائم جرمه * واجعل بجنات النعيم له قرى

واما المغرب العربي في شمال أفريقيا فقد تنازع الحكم فيها الموحدون والمرينيون والحفصيون الى ان جاءها الحكم العثماني ثم الغربي من اسبان وبرتغاليين وفرنسيين ،

الحالة الاجتماعية :-

لقد ساءت الاوضاع الاجتماعية ازديادا وذلك لان الغرباء استولوا على خيراته وبددوا ثرواته وتركوا السكان الاصليين يعيشون في بؤس وشقاء، وكثر الدجالون الذين كانوا يسمون انفسهم بالشطار فقد عاثوا في الارض فساداً وابتزوا أموال الناس ظلماً وعدواناً، وكثر في المجتمع الغش وفساد الضمائر وكذلك سوء الحالة الصحية وتفشي الامراض وهجوم الطاعون ،

اما الاسرة فكانت متفككة ولم تكن افضل من غيرها ، فقد تفككت عراها وانحط شأن المرأة وهبط مستوى اولادها وصار الرجل يقسو في معاملتها ويمنعها من الخروج ويسدل عليها ستار الجهل ويشدد عليها الحجاب والانزواء عن مجالس العلم وحلقات الادب .

اما في مصر والشام فكانت الحياة الاجتماعية احسن بكثير وذلك لان المماليك حموا الديار التي سيطروا عليها من المغول والصليبيين ، وبلغ الترف في ايامهم حداً بعيداً فقد تفننوا في مأكلهم وملبسهم وروى بعض المؤرخين واصفاً حالتهم الاجتماعية بقوله - ان الاسياد قد صنعوا آنية شرابهم وطعامهم بالذهب ورصعوا عصائب شعور نسائهم وثيابهن وخفافهن بالجواهر واللآلئ واتخذوا في مجالس لهوهم آنية وتماثيل ودمى من الذهب المرصع ولبسوا الثياب المزخرفة وافترشوا الدمسق والحرير والديباج واستعملوا آلات الشطرنج والنرد المصنوعة من الذهب والفضة والابنوس والعاج ، وقد شاع تناول الحشيش ، ووصل الموبقات حتى اضطر الملك بيبرس سنة ١٢٦٥ الى اصدار مراسيم بابطال ترخيص الحشيش وشرب الخمور ومعاقبة المتعاطين عليها كما أمر عماله بمراقبة الموازين والمكاييل .

وقد ظهر التبغ في مصر سنة ١٠١٢هـ وذكر الاسحاقي في تاريخه بقوله " ان الدخان مضر بالابدان ، وهو يابس الطباع ، الذي لاشيء فيه من الانتفاع ، المسود للاسنان ، المهرب لملائكة الرحمن ...."

وهناك من أثنى عليه مثل قول ابي المواهب البكري ت ١٠٣٧هـ

ودع ملامهم طبيب عابها سفهاً   وداوني بالتي كانت هي الداء .

اما الجزيرة العربية فكانت بعيدة عن الاصلاح ، لذا اضطربت أحوالها وامتدت الفوضى إليها وبخاصة في الحجاز فإن اهلها اخذوا يقاسون الويلات والمعيشة الضنكة ، ومن حوادث السلب والنهب والاعتداء قوافل الحجاج وزوار الحرمين أموراً مقلقة .

الحياة الثقافية :

لقد كانت الحركة الفكرية في العراق قوية ونشطة حتى أواخر الدولة العباسية ، فلما نكبت بغداد بالتتر واجتاحت جيوشهم بغداد ، اصاب البلاد بلاء كبير من تقتيل وتشريد ونهب واحراق وقد ذهب ضحية هذا الغزو الكثير من العلماء أمثال الصرصري وابن الجوزي والزنجاني وغيرهم ، ولم يبق هولاكو الا بعض العلماء الذين يجيدون اللغة او يتقنون علوم الفلسفة والرياضيات واخذهم الى عاصمة ملكه ، اما المدارس ودور العلم والمكتبات اصابها خراب كبير واصبحت لا تتجاوز اصابع اليد بعدما كانت تتجاوز المئات ومن المدارس التي لم يصبها تلف كبير المدرسة النظامية الكبرى ، والمستنصرية ، والبشيرية .

اما اشهر علماء هذه الحقبة ابن الفوطي مؤرخ العراق الكبير وابن ابي الحديد شارح نهج البلاغة ، والامام الصاغاني ، وابن الساعي خازن دار كتب المستنصرية .

أما في مصر والشام فإن المماليك ساروا على النهج الذي اختطه الأيوبيون فأكثروا المدارس وقد أشار المقريزي في خططه «أن المدارس في الشام ومصر بلغت نحواً من سبعين مدرسة ومعهداً للتدريس ويقال أن مثل ذلك العدد كان في الأصقاع والولايات التابعة لهم.

اما اللغة العربية وعلومها فكانت مزدهرة لأن المماليك كانوا يتعلمونها ويعلمونها أولادهم ويشجعون على إتقانها، والبراعة فيها وفي آدابها وعلومها» وألفت كثير من الكتب برسم كثير من السلاطين، وأن ما بين أيدينا من كتب ما هي إلا ثمرة هذا العهد الميمون الذي لم تتعرض كتبه لما تعرضت له كتب المشرق والمغرب من حرق وإتلاف.

ولما جاء العثمانيون واحتلوا العراق والشام ومصر والحجاز هبط المستوى الثقافي واقتصر على فئة قليلة من الناس وتدنت أساليب التدريس وطرائق الكتابة.

اما ديار المغرب العربي فإن الثقافة بقيت مزدهرة فيها وكان لعلمائها الدور الكبير في نقل الحضارة العربية إلى أوربا، وقد ازدادت مكانة المغارب فيها بعد نزوح العلماء والأدباء والفنانين والصناع من الأندلس إليها، ثم خبت جذوتها بعد مجيء العثمانيين فالاحتلال الأوربي.

* الشعر وخصائصه الفنية

من الظلم ان نسمي الحقبة التي تلت سقوط بغداد بالعصور المظلمة وهي تسمية خاطئة، لان الادب حتى وان تأثر بالاوضاع السياسية والاجتماعية الا انه لم يهبط الى درجة الانحدار والانحطاط ولكن نستطيع القول ان الشعر لم يكن متدفقاً بالقوة التي لمحناها في العصور التي سبقته لاسيما العصر العباسي الاول.

اما اسباب ضعف الشعر في بغداد تكمن في:

* انقضاء عهود التشجيع للشعر والرعاية الكبيرة له.
* اضمحلال المجالس والمحافل التي تستقبل الشعراء وتحتفي بهم.
* الملوك والرؤساء في بغداد لا يعرفون اللغة العربية ولا يشجعون عليها لانهم اعاجم.
* جهل قسم كبير من الناس وتفشي الامية بينهم فانهم لا يعرفون الشعر ولا يستسيغونه.

- اما في مصر والشام: فقد وجد الشعر جواً لا بأس به اذ استطاع ان يقوى على الوقوف والصمود وذلك لان الملوك المستعربين احاطوه برعايتهم امثال بني أرتق في ماردين والملوك الايوبيين في حماة وحصن كيفا وعدد من سلاطين المماليك امثال الناصر محمد بن قلاوون واخوته، ولم يقتصر الشعر على فئة معينة ولكنه شاع بين مختلف طبقات الشعب حيث اتخذوه وسيلة للتسلية والتفكه والمتعة حيناً، وللعمل حيناً آخر، فكان من اصحابه الوزراء والامراء والفقهاء، والخياطون والدهانون والقضاة والبزازون والنجارون وسواهم من الحرفيين،

وقد صور الشعراء بصورة صادقة حياتهم واحاسيسهم ومشاعرهم الذاتية وامينة في نقل الاحداث والوقائع، ونظموا في جميع اغراضه المعروفة كالمديح، والرثاء، والغزل، والفخر والحماسة والهجاء، والوصف والزهد والتصوف والمجون، والخمريات، والاخوانيات .....

* الغزل وخصائصه :

من ابرز الاغراض التي وجدناها في هذه الحقبة ، اذ لم يخلو ديوان شاعر منه هذا الغرض المهم وله خصائص وميزات منها

* غلب عليه التقليد ، لا سيما المقدمات الغزلية المصوغة مثال ذلك قصيدة صفي الدين الحلي التي يمدح بها الناصر محمد بن قلاوون التي عارض فيها قصيدة ابي الطيب المتنبي التي يقول في مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا * اللابسات من الحرير جلاببا

وقصيدة صفي الدين الحلي أولها :

أسبلن من فوق النهود ذوائباً * فجعلن حبات القلوب ذوائباً

* المبالغة في وصف الممدوح اذ توحي للقارئ انها غير صادقة وتفتقر الى الجدة والحياة والحركة .

ترجى مواهبه ويرهب بطشه * مثل الزمان مسالماً ومحاربا
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة * واذا سخا ملأ العيون مواهبا
كالليث يحمي غابه بزئيره * طوراً وينشب في القنيص مخالبا

* كثرة شعر مديح الاصدقاء والزملاء والفضلاء واعيان ذلك العصر من الرجال والعلماء ، ولم يكن القصد منه الحصول على المال ، بل للوفاء والتعبير عن مشاعر الود والاخلاص .

* المديح النبوي *

لقد زها المديح النبوي في تلك الحقبة وراج سوقه رواجاً واسعاً ، واقبل عليه الناس اقبالاً كبيراً بعد ان تهيأت له الدواعي والاسباب ، وقد ألفت فيه دواوين كثيرة منها ((منائح المدائح)) لابن ابي الاصبع المصري (ت ٦٥٤) هـ و ((بشرى اللبيب بذكرى الحبيب)) لابن سيد الناس اليعمري (ت ٧٣٤) هـ و ((منتخب الهدية في المدائح النبوية)) لابن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) ... الخ

وكانت قصائد المديح النبوي على الأغلب محدودة بأبيات ، فقد تقصر أو تطول [redacted] تخلص الى الغرض الأساسي ، وكان للغزل بنوعيه المؤنث والمذكر - القدح المعلى والنصيب الأوفر فالغزل المؤنث لا يختلف في شكله ومضمونه عن الغزل الحسي الذي يتناول وصف مفاتن النساء ، واقبالهن وادبارهن وغنجهن ودلالهن وما يعاني المحب من سهر وارق وقلق وهذا اللون غالبا ما نجده في مطالع القصائد التي نظمت معارضة لقصيدة ((بانت سعاد)) لكعب بن زهير التي انشدها بين يدي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . واشهر من عارضها ، الصاحب شرف الدين الأنصاري (ت ٦٦٢هـ) وشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري (٦٩٥هـ) وابن سيد العمري (٧٣٤هـ) وابن نباتة المصري (ت ٧٦٨هـ)

(*) اما خصائص هذا النوع من المديح واعني به المديح النبوي فهي كالاتي

* قريب المأخذ سهل المعنى
* قليل التلاعب اللفظي
* تكلله هالة من العفة والطهر والرزانة .

وقد اعتمد الشعراء في ابتداء قصائدهم المدحية مذهبين .

* **المذهب الاول** : هو ان يسترسل الشاعر في الغزل الحسي حتى يخلص منه الى مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم ونعني انه يتناول اجزاء الجسد واقسامه ويعرضه للسامع ، وكأنه نخاس يعرض جارية للبيع في سوق الرقيق كقول أبي حيان الاندلسي

فالنحر مرمرة والنشر عنبرة * والثغر جوهرة والريق معسول
والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج * والخصر مختطف والمتن مجدول .

ولقد خلص منه لمدح النبي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم

اما **المذهب الثاني** في ابتداء القصائد المدحية هو التشبيب بالديار الحجازية وذكر معالمها ، او الحنين اليها ، والشوق الى ساكنيها ، والبكاء على مواطنها ، ووصف الابل الضامرة ، وحديث السرى ، والمناهل والنباتات

والمواضع التي تقع على الطريق ، والريح والبرق والرعد والغيث وكل ظواهر الطبيعة التي تراها العين ، ويعد البوصيري فارس هذا الميدان وتخص بالذكر قصيدته البردة التي مطلعها .

أمن تذكر جيران بذي سلم * مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وقد عارضها الكثيرون منهم عمر بن الوردي .

وقد اتخذ بعض الشعراء المدائح النبوية ذريعة للتحدث عن حال العرب بعد استبداد الأعاجم بمقاليد الحكم والسيطرة على مرافق الحياة ومن ذلك ما قاله الشاب الظريف

أرض الأحبة من سفح ومن كثب * سقاك منهمر الأنواء من كثب
قوم هم العرب المحمي جارهم * فلا رعى الله إلا أوجه العرب
أعز عندي من سمعي ومن بصري * ومن فؤادي ومن أهلي ومن نشبي
لهم عليّ حقوق مذ عرفتهم * كأنني بين أم منهم وأب

الرثاء: وهو من الأغراض البارزة في تلك الحقبة فإلى جانب رثاء الأحباب والأمهات نجد رثاء المدن الزائلة وبكاء الدول البائدة، فهذا شمس الدين الكوفي (ت ٦٧٥هـ) يبكي على بغداد، مهد العلم والحضارة بعد أن فارقها على أمل العودة إليها وإذا بيد التتر تصرعها وتحيلها إلى خراب، وقد ذكر في رثائها صحبه وأصدقاءه الذين ودعهم إلى غير رجعة فيقول:

إن لم تقرّح أدمعي أجفاني * من بعد بعدكم فما أجفاني
إنسان عيني مذ تناءت داركم * ما راقه نظر إلى إنسان
يا ليتني قدمت قبل فراقكم * ولساعة التوديع لا أحياني

ويتعجب الشاعر بعد تطوافه ببغداد من تبدل الوجوه وغياب الأهل والجيران وما حل بها بعدما جالت فيها معاول الهدم وألسنة النيران:

ما للمنازل أصبحت لا أهلها * أهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم * غير البلى والهدم والنيران

ووقف مذهولاً أمام الدار الخربة - وهي ليست وقفة الشعراء على الأطلال محبوباتهم الظاعنات - وسائلها عما دهاها وأصابها:

ولقد قصدت الدار بعد رحيلكم * ووقفت فيها وقفة الحيران
وسألتها لكن بغير تكلم * فتكلمت لكن بغير لسان

فردت الدار على سؤاله بجواب لطيف بأن أهوال الدهر وحوادثه أفنتهم كما أفنت دولة كسرى:

قالت غدوا لما تبدد شملهم * وتبدلوا من عزهم بهوان
أفنتهم غير الحوادث مثلما * أفنت قديما صاحب الإيوان

لم يصف هذا الشاعر مدينته المنكوبة وصفاً تفصيلياً، إنما وصف حزنه على فراق أصحابه ووصف الدمار والخراب الذي حل بمدينته، ولم يستطع أن يتخلص من التزيين اللفظي والمعنوي من الجناس والطباق ورد الصدر على العجز.

أما الشعر الذي قيل في رثاء بغداد كثير وصله ووجدنا في رثاء المدن الشامية التي خربها التتر، فهذا الشاعر يوسف بن الملك العزيز محمد يؤخذ أسيراً مع جميع أقاربه وأبنائه وتضرب أعناقهم بالسيوف وقال أبياتاً حينما مروا به على حلب

يعز علينا أن نرى ربعكم يبلى * وكانت به آيات حسنكم تتلى
أدور بعيني نحوكم في دياركم * وأكثر فيها النوح كالفاقد الثكلى

أما آثار هذا الغزو بقية عالقة بالأذهان، تثير بين الحين والآخر الأشجان والأحزان، تهز الكارثة الشعراء كلما شاهدوا آثارها أو رأوا معالمها أو قرأوا حوادثها المثيرة ووقائعها المؤلمة.

- الغزل -

يعد من الأغراض المهمة في هذه الحقبة حيث أفرد له الشعراء القصائد الطوال والمقطوعات القصار، وأهم ما يميز هذا الغرض هو عودة الضمير الى المذكر وربما يعود سببه الى احتجاب المرأة، وحجرها في دارها وعدم السماح لها بمخالطة الرجال ومجالستهم حتى المقربين منها، فمنع الشعراء التغزل بها صراحة، حفظاً لسمعتها وخشية من أهلها، فاتخذوا الغزل بالمذكر وسيلة يلمحون به لحبيباتهم عن شوقهم ووجدهم لهن.

أما الغزل بالمذكر فيتناول وصف الغلام من أعضائه كما توصف المرأة في قدها وخدها وخصرها وردفها وثناياها وشعرها وعينيها حتى في غنجها ودلالها، ووصف الشعراء الوجد والهيام والترصد واللحاق كما وصفها المتيمون في حب النساء، وافتتنوا بحسن منظره ورواؤه وسحر طرفه ومبسمه كما يفتتن الرجل بالمرأة الجميلة الساحرة، وعلى الرغم من ذلك إلا أنهم لم ينحدروا الى المعاني المبتذلة التي نجدها عند أبي نواس وأبي الحسن السلامي وابن سكرة الهاشمي. منها ابن نجا الضرير الإربلي (ت ٦٦٠ هـ) يقول أبياتاً في حبيبه

تذللت لو أن التذلل ينفع * وأفرطت في الشكوى لو انك تسمع
وأسلمت خضوعي للحبيب سجيتي * وهل نافعي للحب أني أخضع
ومن عجب أني بحبك مولع * وأنت ببغضي والقطيعة مولع

فهو في هذه القصيدة يبث شكواه من الحبيب الذي أصم أذنيه

وكأنه لا يسمح لهذا أن يقع أسيراً في سجنه الذي لا يبرح عنه، فالبغض سجيته والقسوة طبعه وقد نفد صبره وتزاحم وجده.

- الهجاء -

من الموضوعات المهمة في هذا العصر وقد تناول الشعراء في جانب منه العرض وقذف المحصنات والسب والشتم الرخيص الذي تمجه الأذواق وبعضه الآخر فيه شيء من السخرية والهزل وتصوير المهجو بشكل مضحك، أو نعته بنعوت مشينة في عرف المجتمع مثل الغدر والبخل والحمق وما شابه ذلك، قال سليمان بن بنيمان (٦٨٦هـ) في هجاء شهاب الدين التلعفري الذي قامر بثيابه وخفافه، وهو يبين فيها ما لم يسمع ولم يرَ مثل هذا الشيخ الذي قامر بكل شيء حتى خفافه التي تحميه من أذى الحفاء، ويسخر من انتسابه الى بني شيبان ويأنف أن يكون منهم، وهو رقيع مبتذل لا يستحق الهجاء فيقول فيه

ما رأينا ولا سمعنا بشيخ * قبل هذا مقامر بالخفاف
يدعي نسبة الى آل شيبا ن وتلك القبائل الأشراف

- الوصف -

كان لهذا الغرض نصيب وافر من هذه الحقبة وجاء منثوراً في قصائد ومقطوعات مستقلة، وقسمه الآخر ضمن الأغراض الأخرى، ونلمح في أوصاف الشعراء لا سيما في وصف الطبيعة مزجاً بين الشاعر وطبيعته ومنهم من وصف طبيعة الجميلة التي تحتضنها الطبيعة الخضراء الزاهية مثل قول عائشة الباعونية (ت ٩٢٢هـ) في وصف دمشق

نزه الطرف في دمشق ففيها * كلما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل * كيف تجري من تحتها الأنهار

لم يترك الشعراء شيئاً وقعت أعينهم عليه إلا وصفوه فقال أحدهم في فانوس

انظر إلى الفانوس تلق متيماً * ذرفت على فقد الحبيب دموعه
أحيا الليالي بقلب مضرم * وتعد من تحت القميص ضلوعه

وقال شهاب الدين ابن الخيمي (ت ٦٨٥ هـ) في سبحة سوداء :

وسبحة مسودة لونها * يحكي سواد القلب والناظر
كأنني عند اشتغالي بها * أعد أيامك يا هاجري

- الفخر والحماسة -

وهما الغرضان قيلا في المعارك التي دارت بين المسلمين والفرس أو بين المسلمين والصليبيين ، أو بين الأسر الحاكمة ، ومن ذلك مثل قول صفي الدين الحلي حينما قتل خاله وأخذ بثأره

سل الرماح العوالي عن معالينا * واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا
إنا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً * أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا * خضر مرابعنا حمر مواضينا
لا يظهر العجز منا دون نيل منىً * ولو رأينا المنايا في أمانينا

- الخلاعة والمجون -

أقبل على نظمه فريق من الشعراء ، فرقوا ستر العفاف ، وساروا في درب الغواية والرذيلة ، ومن هؤلاء الشعراء علي بن عبد العزيز البغدادي (ت ٦٨٤ هـ) ، وشرف الدين بن أسد (ت ٧٣٨ هـ)

- شعر الزهد والتصوف -

كان هذا الغرض رائجاً وقد فزع الشعراء الى رحابه ليكشف الله عنهم الكرب والبلاء مثل قول عماد الدين بن الحسن البغدادي العمار (ت ٧١٢هـ)

توكل على الله جل اسمه * ولا ترجون سواه تعالى
فكل امرئ يرتجي غيره * لكشف الملمات يرجو المحالا

- شعر الحكمة -

وتوجه الشعراء الى الاخلاق النبيلة لذا كانت معانيهم تدور في فلك الفضيلة مثل قول عز الدين بن كمونة البغدادي (ت ٦٨٣هـ)

صن الحلم عن أهل الجهالة دائماً * ولا توله من لا يكون له اهلا
فيورثه كبراً ومقتاً وشرة * ويقلبه النقصان من عقله جهلاً (١)

هو بذلك تكون اقرب الى النظم التعليمي ، وقلما يطول فيه نفس الشاعر ، وهو قليل الحظ في الجمال الفني والصياغة الجيدة .

- شعر الاحاجي والالغاز -

وهو من الاغراض التي اتخذها الشعراء وسيلة للتسلية والتلهية ، والرياضة الذهنية مثل قول احمد بن عبد الملك العزازي (ت ٧١٠هـ) في القوس والنشاب :

قد علا جسمها صفار ولم تشـ * ـك سقاماً ولا عراها هزال
ولها من البنين سهم وقسم * وبنوها كبار قدر نبال
وبنوها لم يشبهوها ففي الام * اعوجاج وفي البنين اعتدال

ويمكن ان نلخص الملاحظات في دراستنا لشعر هذا العصر بالاتي -

* يتراوح شعر هذا العصر بين مستويين متناقضين احدهما - وهو قليل - رصين حافظ على الصياغة القديمة وراعى مقوماتها واصولها - وثانيهما وهو الكثير - ضعيف ظهرت فيه ركاكة البناء والتراكيب وافتقر الى الابداع والابتكار وان هؤلاء الشعراء لم يكونوا بالدرجة الكافية من المستوى اللغوي والادبي الذي كان عليه شعراء العصر العباسي أمثال بشار بن برد وأبي نواس والبحتري والمتنبي والشريف الرضي، لذا سوف نتناول اهم الملاحظات التي اختص بها هذا العصر.

* ضعف الاسلوب وخمود العاطفة حتى تبدو ابيات بعضهم وكأنها حديث عادي من حديث العامة والشحاذين، مثال ذلك قول البوصيري من قصيدة رفعها الى الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم.

إليك أشكو حالنا ، اننا * عائلة في غاية الكثرة
احدث المولى حديثاً جرى * لي معهم بالخيط والابرة
صاموا مع الناس ولكنهم * صاروا لمن ابصرهم عبرة

* ضعف الالفاظ والتراكيب وقد جاء ذلك من عجزهم عن التصرف في اللغة تصرف المالك لزمامها لذلك اخفى بعضهم هذا الضعف بثوب الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية. فاستخدموا التورية وادعوا انهم اول من تنبه اليها والى روعتها من ذلك قول سراج الدين الوراق (ت ٦٩٥هـ) في رجل اسمه عرفات

اطنبوا في عرفات فغدوا   يتعاطون له حسن الصفات
ثم قالوا لي أهل وافقتنا   قلت اخذي وقفة في عرفات

* ومنهم من استخدم الجناس المتكلف المثقل كقول شهاب الدين التلعفري (ت ٦٧٥ هـ)

ان خالِ مما يقاسيه قلبي * من غرير له على الخد خال
كلما عز زاد ذلي وحالت * لي فيه مع الزمان الحال

واعجب الصفدي ببيتين للشاب الظريف (ت ٦٨٨ هـ) فيهما الجناس

يا بأبي معاطف وأعين * يصول منها رامح ونابل
فهذه ذوابل نواضر * وهذه نواظر ذوابل

قال: هذا من أعلى طبقات هذا النوع لأنه رد العجز على الصدر بألفاظه مع اختلاف المعنى.

* من الكناية: قول شمس الدين الكوفي (ت ٦٧٥ هـ)

السكنة ربع الغرام فماله * من ساكن لا يستطيع حراكا

* ومنهم من امعن في الصنعة والإغراق في التلاعب بالكلمات مستخدمين ألفاظاً مصطنعة مثل ذلك قول ابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) يتغزل بالمذكر

طرفي من ليلات الهجر * مقروح الجفنين من السهر
تُوري الحنين كوى قلبي * فصحت من الحريق أيا نوري

إن ابن حجة الحموي أتعب نفسه وكد ذهنه في ايجاد كلمات تلائم الوزن والقافية ولكن اراد ان يبين حذقه في التلاعب اللفظي ولكن نلاحظ ان هذه الأبيات تخلو من الحس الشعري.

* التجأ بعضهم إلى القرآن الكريم في اقتباس من آياته ليضفي على شعره هالة من الحسن والبهاء والرفعة كقول ابن نباتة المصري (ت ٧٦٨هـ)

أجل نظراً في حاجبيه ولحظه * ترَ السحر منه قاب قوسين أو أدنى

فالعبارة الأخيرة مقتبسة من الآية الكريمة التي وصفت رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم في حادثة الإسراء والمعراج، وما وصل إليه من التكريم والتعظيم، ولكن هذا الأمر يبتعد عن مناسبة الأبيات وفكرتها، ولا يليق بمقام الله ورسوله إذ تفتقد الموازنات بهذا الشكل البعيد عن طبيعة الأشياء وأقدارها.

* ومنهم من اقتبس من الحديث النبوي الشريف مثل قول شهاب الدين التلعفري مستخدماً مصطلحات في الحديث.

ولا برح الصبا يروي صحيحاً * حديث رياضها، وبها اعتلال

فقوله ((يروي صحيحاً)) يشير إلى رواية الحديث الصحيح وقوله ((بها اعتلال)) إشارة إلى العلم الذي عرف بعلل الحديث التي تعنى بدارسه الحديث وأوجه صحته أو ضعفه وكيفية التثبت منه بالطرق الصحيحة.

* ومنهم من ولع في الاقتباس من الأمثال، وقال العقدي معلقاً على مثل مشهور ((سبق السيف العذل)) فقد استعمله الشعراء كثيراً منهم السراج الوراق (ت ٦٩٥هـ)

يا عذولي كف عني * سبق السيف العذل.

* ومن ضمن قصائده مقاطع وأبيات لشعراء سابقين وقد أشار إلى ذلك الشاعر مجير الدين بن تميم بقوله

أضمن كل بيت فيه معنى   فشعري نصفه من شعر غيري

من افتتان الشعراء بالتضمين نسمع قول صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) يخاطب ابن نباتة المصري:

أفي كل يوم منك عتبٌ يسوؤني
(كجلمود صخر حطه السيل من علِ)
وترمي على طول المدى متجنياً
(بسهميك في أعشار قلب مقتلِ)

فأجابه ابن نباتة بقوله

قطعت ولائي ثم أقبلت عاتباً
(أفاطم مهلاً بعض هذا التدللِ)
بروحي ألفاظ تعرض عتبها
(تعرض أثناء الوشاح المفصلِ)

فهاتان الصورتان الشعريتان تنطقان عن التكلف المقيت في التضمين والصنعة اللفظية التي أضفت على الأبيات ثقلاً ومجافاة للطبع والذوق الأدبي إلى جانب الاختلال الواضح في المعنى، وعجز الشاعرين عن تحقيق التوازن بين الأفكار التي يعالجانها والتعبيرات عنها.

وقد ضمن الشعراء أشعارهم ألواناً أخرى من البديع مثل الجناس والغريب والملفق والقصيدة المعجمة، والحروف الموصولة والمقطعة، وإلى جانب ذلك فقد عرض الشعر في العصور المتأخرة أشكالاً مستحدثة كالتاريخ، والتشجير، وذوات القوافي وتحولات الطرفين، والشعر الهندسي وغير ذلك من الألوان الجديدة المستحدثة في هذا العصر.